قصة فى رسائل

سعادة لم تتم

بقلم عبد الوهاب الخطيب

صديقى :

تسألنى مابالك كثير الاطراق ، دائم التفكير ، حائر البصر ، مشرد اللب ، بادية عليك علائم السقم ؛ كأنك تعالج كتمان أمر فى نفسك شديد على لسانك إعلانه . أو تشكو داء لا قِبل لمثلك باحتماله . وتعلم ياصديق أننى كنت قبل ذلك مرحاً غاية المرح ، طروباً نهاية الطرب ؛ وأننى كنت فى مرحى وطربى لا أخرج عن كونى شاباً سعد حقبة من الزمان بالأمل الباسم وعين الزمان نائمة — والأمل جذوة الشباب وشعلته ، وروحه وقوته ، ومرحه وطربه ، ولهوه ولعبه — فكنت بما بين ضلوعى من أمل أجرى مع الشباب الى تلك الغاية التى رسمتها لنفسى ، مستسهلاً فى سبيلها وراء الأمل كل صعوبة أمام الشباب ، حتى إذا كنت من آخر المضمار قاب قوسين أو أدنى ، فتح الدهر عينيه ، ثم تثاءب وتمطى ، ثم التفت إلىّ ونظر نظرة أنت تعلم ماذا كان وراءها !

يا ويحى ! ! لقد تأنق فى مكروهى القدر ، أخ فى الورد من أيامه بالورد عثر ، وعم ظلامه المشيب ففر منه ونفر ، وأملٌ على آثارهما تحطم واندثر . ثلاثة أشباح كانت صروح سعادة ومنتديات أحلام ، لم يفارق العين خيالها ، ولم يهدأ القلب من طعناتها ، ولم أفتأ أذكرها من حين الى حين .

قلت قضاء حُمّ ، وأمر من الله نفذ ، لاراد لقضائه ، ولامعقب لحكمه ، واستعنتُ الله على هذه النوازل فأعاننى ، واستهديته فهدانى . وإن كانت فى القلب جمرات من الأسى ، مغطاة برماد من الصبر خفيف ضئيل . ولبثت على ذلك برهة كانت أقصر من عمر آمالى وسنات أحلامى ، لم أشعر فيها بشىء من معانى الحياة ، اللهم إلا بذكرى فى قلبى تتمثل ، وخيال أمام عينى يتنقل . وكنت مع ذلك أرى كما يرى الناس ، وأسمع كما يسمعون ، وأسير كما يسيرون . غير أنى كنت أنظر بعينين فيهما انكسار من بقايا آثار الدامع ، وأسمع بأذنين فيهما رنين من صدى تلك الفجائع ، وأمشى على قدمين يؤودهما حمل هذا الهيكل السقيم الناحل المتهدم ، مشىَ من حنّتْ ظهره السنون ، وأثقلت كواهله الليالى والأيام ! !

ثم رأيتها لأول مرة ، وقد ألقى عليها بارئ النسم ثوبين ضافيين من جمال وجلال ، فأحسست نحوها بحنان كأنه رقة العشق ، سرى فى دمى سريان الكهرباء فى أسلاكها ، ومكثت طول يومى أفكر فيما سيصير اليه أمرى بعد تلك النظرة التى كانت توفيق أقدار لأقدار .

يا لله ياصديق ! لشد ما ملكت على إحساسى وشعورى فى المرة الثانية ؛ والقلب الهوّاء تجد فيه كل غيداء فراغاً لها . وكان قلبى لا يزال واقفاً على أطلال الأمل ، يندب شجوه ويبث لوعته . فنظر اليها نظرة كنظرة إبراهيم فى النجوم وقال إنى سقيم . وكأنما أرادت أن تداويه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، فرنت اليه بنظرة جمّعت شعبه ولمت شتاته ، وأطفأت لهبه وأحيت مواته ، فالتفت فى مثل انكسار جفونها ، ورفع الراية بالاذعان فى شكر ، والتسليم فى طاعة . ثم كان بعد ذلك ما كان .

أخذ فكرى يسبح رويداً رويداً فى ملكوت لا نهاية له من الخيال وراء هذه الظاهرة الغريبة التى ملكتنى ، وأصبحت أشعر بحياة جديدة فيها معنى حائر بين سعادة لا نهاية لها ، ذلك أنى احتويتها فى جوانح القلب ، واتخذت من عبقرى جمالها ريشة لعبقرى خيالى ، فكان لا يرتسم فى ذهنى معنى إلا وفيه من حسنها مثال ، ولا يقع نظرى على شىء إلا وفيه منها رونق بهجة أو شعاع جمال ، تلك سعادة علوية ساحرة قاهرة ، تغطى على كل سعادة فى الأرض لتظهر هى فى صورتها البديعة اللطيفة فتنة لمن يراها أو يحس بها من الناس أجمعين .

لا أستطيع يا صديق أن أصفها لك ، فهى روح ، والروح لا توصف ، وهى حياة ، والحياة لا يمكن إنساناً فى الوجود تكييفها ، وهى مع هذا وذاك سر لا يدركه غيرى ، ولا يحسه أحد سواى ، وكل ماأستطيع أن أقوله لك إنها مشرقة الطلعة ، معتدلة القامة . مطمئنة السير ، فيها لمحات محدودة من الانسانية العالية السامية . هبطت بها الى هذا الملأ الذى نعيش فيه كدليل حسى على أسمى مراتب الجمال وأتم مظاهر الجلال .

لقد مضت على يا صديق مدة تزيد على ثمانية عشر شهراً ،

لم أحاول فيها أن أطرق سمعها — على قربها منى — بكلمة واحدة تفهم منها ما يكنه قلبى من الحب لها والوجد بها ، وكم تمنيت أن أسمع من فمها الرقيق الساحر الحالم كلمة واحدة ، فلم أجد إليها من سبيل ، كما أنى لم أملأ منها عينى حياء وخجلا ، واكتفاء بصورتها المرسومة فى حبة القلب وفوق صفحات الخيال ، على أن طريق كانت تتحول تبعاً لها على غير قصد منى ، حتى إذا لم يكن من توديعها بالنظرة بد ، وضعت يدى على صدرى كمن يتلمس شيئاً فقده ، وما فقدت إلا قلباً تقطر كالدمعة الحمراء من بين أهداب الجفون .

لا زال صولجان القادر يقذف بقلبى فى واد من الذكريات القديمة ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، كلما طال علىّ الأمد فى لقائها ، والآن يا صديقى وقد مضت على مدة تزيد على شهرين لم ألمحها فيها لمحة واحدة ، أقول لك إن هذا هو سر اطراقى وتفكيرى ، فلا تسألن عن شئ بعدها حتى أحدث لك منه ذكرا ما؟

٢١ — ٧ — ١٩٣٢ صديقك جمال

***

صديقى :

أوقد فعلتها ؟ يا قلبى !! ما كان أحرصنى على الاحتفاظ بالسر وكتمانه ، لولا أننى أعتقد أن لى من قلبك وإخلاصك ووفائك ما يجعلنى أستريح إلى أن أبوح لك (فى شىء من التحفظ كثير وبعد مضى زمن على كتمان هذا السر طويل) بما كنت أقاسيه آناء الليل وأطراف النهار من لواعج قلبى ، وزفرات أنفاسى ودموع عيونى ، ولكن غفر الله لى ولك يا صديقى ما تقدم من ذنبنا وما تأخر ، فان هذه القلوب الطاهرة البريئة ، المكتهلة فى شبابها ، الرزينة فى حبها ، لا يمكن أن تتصل فى يوم من الأيام بغير مايماثلها شرفا وطهرا ، ورزانة ونبلا .

ولئن وقع خطابى فى يد غير يدها ، ورأته عين غير عينها ، وطرقت نبراته الحزينة سمعاً غير سمعها لخطأ فى الاسم كما يقال ، فاننى لسعيد مغتبط ، هنىء ملء قرارة نفسى وطوايا فؤادى ، ذلك أن خطابى وقع فى يد شريفة وعند قلب ذى إحساس سام ، يعرف المعنى المرتسم فيه كما أريد ، وأغلب الظن أن الله قد يهيئ لى من أمرى هذا رشداً . ولعله يكون قريباً والسلام ما؟

صديقك جمال

١٤ — ٩ — ١٩٣٢

***

عزيزتى :

عبثاً كنت أخادع قلبى بالسلو عنها أو الافلات من براثن حبها بعد أن جاءنى خطابك الأخير ، فانها لم تدخل قلبى إلا بعد أن صهرته آلام الحياة وأحزانها ، وأصبح نقياً شديد الايمان بقضاء الله وقدره ، صادق الاحساس بما يجرى حوله فى الحياة من مظاهر خادعة وأخرى مخدوعة ، مطمئناً الى الحياة من حيث هى وجود ناقص حيناً وتام أحياناً ، عالماً أن لكل شىء نهاية لا بد وأن ينتهى اليها

ولقد أيقنت من يوم أن أحسستها تجرى فى دمى أن الله قدر لى أن أحبها ، فأحببتها لنفسى ، وأحببتها لأن الله أراد ذلك ، وكان قلبى صادق الحس بها ، فلم تكن خادعة ولم يكن مخدوعاً ، وكان وقوراً حكيما فاكتفى بأن يحبها هو من غير أن يتساءل ما هى ميولها نحوه ؟ وهل تعلم أن فى العالم المحيط بها قلباً يرفرف عليها فى غدوها ورواحها ، فى مسائها وصباحها ، فى يقظتها ومنامها ، فى دمعتها وابتسامها ؟ ومن هو صاحب هذا القلب ؟ وبعد ذلك اطمأننت الى أن الحياة من حيث هى وجود ناقص ، هى تلك الساعات التى لا تجرى فيها المدامع من شوق ، ولا تسيل فيها النفوس من ذكريات وحنين ، وأيقنت بعد هذا وذاك أن الحب كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ولا يقال فى نقطة منها إنها نهاية إلا قيل فى نفس الوقت إنها بداية

لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب فى أمرى ، بل أيقنت أنك قد أصبت المرمى حين أرسلت إلىّ خطابك المفوّق ، وإنى أقول لك بلغة يقطر منها الشكر إن خطابك كان فيه الشفاء لقلبى من الناحية التى تريدينها ، وإنى ماسكتّ هذه المدة إلا لأختبر قلبى وأستشير عقلى ، أما القلب فلم يجد عنها حولا ، وأما العقل فأشار بأخذ رأيك فيها من جهة ميولها نحوى ، فان كنت عندها شيئاً فابسمى يا دنيا ، وأشرق يا أمل

كنت فى بعض الأيام أراها ، فيحترق قلبى من الشوق اليها وهى أمامى ، ولا يكاد نظرى يلتقى بنظرها حتى ينقلب إلىّ خاسئاً

وهو حسير ، وكنت أستجمع قواى كلما رأيتها لألقى اليها بالتحية فيحتبس لسانى من العى — لا طبيعة فيه ولكن جلالا لا أدرى له مدى ، وجمالا لا أعلم له غاية ، وسحراً بين هذا وذاك قوياً شديداً ، كانت ثلاثتها تقيد لسانى عن النطق تقييداً أعتبر نفسى منه فى حد من السعادة محدود — ولقد كان الجو المحيط بنا يمرح فى عبق من أنفاسها وتحايا قلبى ، غير أنها كانت كالزهرة تفوح رائحتها عنـد الصباح ، وكان قلبى كعود الصندل ، كلما لامسته النار فاح .

مرت تلك الأيام كأحلام الكرى لذيذة مستعذبة ، قصيرة كالنظرة ، طويلة كالعبرة ، وخلفتها أيام أعانى من مرها ما أعانى !

فلقد سافرت الى البلدة لقضاء بضعة أيام هناك ، وكأنما كانت الأسقام منى على ميعاد :

يا ويح أهلى يرونى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائى

ومكثت هناك بدل سبعة الأيام التى صرح لى بها سبعة عشر يوما . ثم عدت الى القاهرة وفارقت الحى الذى ولد فيه هواى وترعرع ، إلى حيث أنا الآن ، وهأنذا أبعث إليكما منه وراء قلبى بتحيات كأضغاث الريحان لاتكاد تبلل بندى المدامع حتى تجفف بزفرات الأنفاس ، والسلام ؟

فبراير سنة ٣٣ جمال

***

صديقى :

كتب أحد الحكماء الى صديق له يقول «ياأخى إن أيام العمر أقل من أن تحتمل الهجر» وكنت قرأت فيما قرأت كلمة للامرتين يقول فيها « إن الحب القوى المطمئن صبور » فأنا بين هذين فى حيرة ، ترى متى أهتدى إلى سبيل ؟ ؟

مارس سنة ٣٤ جمال

***

أختى سعاد :

لماذا لا تكونين بجانبى فى كل لحظة كما كنت من عهد قريب ؟ أنا فى شدة الشوق إليك وإلى سماع حديثك العذب الجميل ، وكم أود أن أفضى إليك بسر يجيش به صدرى ولا يمكن أن ينطلق به لسانى لغيرك .

كنت إلى الأسبوع الماضى فارغة الفؤاد ، وكنت على أن أطلب إليك الحضور لأناقشك موضوعاً خطيراً قرأته ليلة أمس فى رواية «مجنون ليلى» وهو لماذا حكم على ليلى بالموت قبل قيس؟ ألأنها كتمت حبها ؟ إن كان الأمر كذلك فانى — خوفاً على حياتى الشابة — أقول لك ياعزيزتى — واثقة منك كل الوثوق — إننى بدأت أشعر بقلبى يميل رويداً رويداً الى شاب كان يطالعنى بعض الأحيان كئيباً حزيناً كأنه دفن قلبه بيده ، رأيته على حالته تلك منذ ثلاثة أعوام ، ويخيل لى أنه محب يكتم حبه أيضاً .

ألا ما أسعد تلك الفتاة التى تتيح لها المقادير مثقال حبة من احترام هذا الفتى النبيل ! !

ضمى ياعزيزتى بجانب هذه الجملة سعادة من استولت على قلبه كله .

أرجو أن أراك يوم الخميس المقبل والى اللقاء . ؟

٢ أبريل سنة ٣٤ اختك فتحية

***

وفى عصر الخميس تلاقت الصديقتان فى منزل فتحية هانم ، وكان بيد الآنسة الزائرة إحدى جرائد المساء ، فجذب نظر فتحية اليها صورة شاب غضير الشباب فى صدرها فتناولت الجريدة من صديقتها ورأت الصورة وقرأت تحتها ما يأتى :

(المرحوم جمال الدين افندى الموظف بوزارة المالية ، علقته المنون وهو فى بريق شبابه)

فامتقع لونها وأدركتها حال شديدة من الذهول والحيرة ، فأقبلت عليها صديقتها تسألها ما بها ، فقالت لها وهى تشير الى الصورة الضاحكة ، والخبر المبكى :

أمل لم يزدهر ، وناشئة حب لم تبق ، وسعادة مرجوة لم تتم !

ثم ألقت فى يدها مجموعة من الرسائل البالية ، وقالت والدمع يسيل على خديها ، ومرارة الأسى تجرى على شفتيها : اقرئى !

عبد الوهاب الخطيب

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . وتعويلاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه